وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
كلية الآداب و اللغات قسم اللغة العربية
جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي-

محاضرات مقياس علم الأساطير
السنة الأولى ما ستر تخصص: أدب شعبي

إعداد الدكتورة: عقيلة قرورو

الموسم الجامعي : 2023/2022

المحاضرة الأولى:

تعريف الأسطورة لغة واصطلاحًا

الأسطورة في اللغة هي من سطر وهي بمعنى تقسيم وتصفيف الأشياء، فالأسطورة تعني الكلام المسطور المصفوف، ولا يشترط فيها أن تكون مدّونة أو مكتوبة، ولكن بالضرورة هي الكلام المنظوم سطر وراء سطر، فتظهر مصفوفة كقصائد الشعر ما يسهل حفظها وتداولها ويحافظ على بنيانها وكلماتها، وعلى ذلك يقول المعاندون للقرآن "ما هذا إلا أساطير"، ولم يروا الأساطير مكتوبة، وإن أغلبهم ليس لهم علم بتدوينها بل هو علم تناقلوه شفويًا بسطورها المحفوظة، والكلمة عربية الأصل وجذرها من الفعل الثلاثي سَطَرَ، وباعتبار أنّ لكلِّ كلمة مشتقة في العربية جانبين: الأول مادّتها والثاني صيغتها أو وزنها فمادة كلمة "أسطورة" تقوم على جذر يدل على المعنى العام الذي يجمع بين سائر المشتقات، أما وزنها فمن أوزان لغتنا العربية، فأسطورة على وزن "أُفعولة" كأحدوثة وألعوبة وغيرها، وجمعها أساطير على وزن "أفاعيل" كأحاديث وألاعيب.

وهذا ما يؤكّد أن كلمة أسطورة هي إحدى اشتقاقات الجذر الثلاثي سَ طَ رَ على وزن أُفْعُولة.

وفي المعاجم الأساطير : الأباطيل والأكاذيب، والأحاديث لا ناظم لها أ و ما لا وجود له .ومنه قوله تعالى " :إنّ هذا إلاّ أساطير الأوّلين "المؤمنون :الآية . 86 و الأساطير هي ديانات الآخرين، وهي في المقام الأوّل ما ي ا ر ه المرء لا معقولا في ديانات الآخرين . أ مّا ما يقبله

المؤمن من قصص أوردها كتابه المقدس أ و تناقلها أتباع دينه ، فهي عنده تاريخ ثابت لا

شكّ فيه، حتى لو وصفها أتباع الديانات الأخرى بأنّها من الأساطير)".

الأساطير في الاصطلاح هي جزءً من التراث القديم الذي يعبّر عن نتاج الأولين وأفكارهم وانعكاس تعليم القوى الربانية لهم، إذًا فالأسطورة هي القصة الشعرية المصفوفة زجلًا أو شعرًا، بحيث تَحوي موضوعًا دينيًّا يتعلّق بالقوى العلويّة والخفيّة، وتعبّر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب ذي إيقاع شعري موسيقي يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الربّ، لأجل أن يتلى ويُتداول ويؤدي دوره في تثقيف العقول وتحريك المشاعر.

تعريف الأسطورة عند الإغريق

تُعرف الأسطورة عند الإغريقيين بمصطلح "الميثولوجيا" ويُقسم ذلك اللفظ إلى مقطعين "الميثو" أي: الخرافة أو الحديث أو الأسطورة، "لوجيا" أي: التصريح أو القول، وبالجملة فإنَّ ذلك اللفظ يعني القصص الخياليَّة، وقد نشأت الأسطورة عندهم للحاجة إلى تفسير الأمور الغامضة والذي عجز أبناء المجتمع الإغريقي على تفسيرها في تلك الآونة، بمعنى آخر إنَّ الأسطورة الإغريقية هي مجموعة من القصص التي ظهرت منذ العصر الموكيني والتي تحتوي على العديد من الشخصيَّات والأبطال الأسطوريين الأقوياء والآلهة المتعددة التي تستعين بالبشر وغير ذلك، ولمّا كان اليونانيون يؤمنون بالآلهة المتعددة ساعد ذلك كثيرًا على ظهور الأسطورة وانتشارها في تلك الآونة.

تعريف الأسطورة فى الأدب العربى

اختلف تعريف الأسطورة ما بين الأدباء وكل واحد منهم أخذ منحًى خاصًّا به في تعريفها، ولكن ما اجتمع معظمهم عليه أنَّ الأسطورة هي مجموعة من القصص والحكايات التي توارثها الأبناء عن آبائهم جيلًا بعد جيلٍ فهي غير معروفة المصدر -أي إنّ مؤلفها غالبًا ما يكون مجهولًا- تمتزج الخوارق مع الوقائع في

الأسطورة ويكون الخيال هو سيد الموقف فيها، فيشترك فيها العديد من الأبطال من أمثال الآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال الأقوياء والحيوانات الناطقة وغير ذلك.

تمزج الأسطورة -في أغلب الأحيان- ما بين عالَمين مختلفين: عالم الطبيعة الذي لا تتحرّك فيه الأشياء إلا بأسبابها، وعالم ما فوق الطبيعة الذي غُيّب الإنسان عنه فكان ذلك نتيجة تعدد المظاهر الطبيعية حولهم، ممّا أدى بالتَّالي إلى تعدُّد الآلهة التي تنتج عنها تلك المظاهر، فكان عندهم إله الحب وإله المطر وإله البحر وما إلى ذلك.

الفرق بين الأسطورة والحكاية الشعبية

تتعدد الفروق ما بين الأسطورة والحكاية الشعبية وتتلخص فيما يأتي:

- الأسطورة تتناول في حديثها الآلهة وأنصاف الآلهة، بينما الحكاية الشعبية تتناول في حديثها الملوك والشخصيات البشرية المختلفة.
- البطل في الأسطورة يُشبه البطل في الحكاية إلى حدٍّ بعيد فهو لا يفعل ما يفعله نتيجة جهوده قدر ما يكون نتيجة مساعدة أحد له لقاء خدمة قدمها له.
- الحكاية الشعبية هي نتاج واضح للأسطورة، والاختلاف الذي نشأ بين الأسطورة والحكاية لا يعدو كونه نتيجةً لتطور الحياة واختلافها وظهور الملوك وغير ذلك.

الأسباب التي تؤدي إلى نهاية الأسطورة السعيدة هي نفسها الأسباب التي تؤدي إلى نهاية الحكاية السعيدة من تدخُّل السحرة الطيبين أو الحيوانات الناطقة.

موضوعات الأسطورة

تتعلّق معظم الأساطير القديمة بالآلهة، وهذه الآلهة التي كانت تتمتع بتعدادها واختصاصها بالطبيعة، فكانت الآلهة في الأسطورة تتمتع بقوى خارقة ولكنها بالمقابل كانت تنساق وراء العواطف كالحب، وكانوا يمرون بالتجارب الإنسانية كالولادة والموت، كانت الأساطير مجرد خرافات وتخيّلات وأوهام لتفسير أحداث كونية، ولم تكن تستند إلّا إلى الظن، ولكن الأسطورة باللنسبة للقارئ الآن هي ليست مجرد قصص بل أصبحت وثائق تنقل لنا العادات القديمة المختلفة وطرق الحياة المتعددة.

قسمت موضوعات الأساطير إلى مجموعتين هما: أساطير الخلق وأساطير التعليل، يقصد بأساطير الخلق هي التي تحاول أن تدخل بموضوعات الكون وتفسر خلق البشر وظهور الآلهة، أمّا الأساطير التعليلية فإنها تهدف إلى تفسير الظواهر الطبيعية، فتعلقت موضوعات هذه الأساطير بمسائل الموت والحياة والشمس والبحر والطبيعة جلّها، وتداخل الخير والشر في حبكتها.

أهمية دراسة الأساطير:

قد يعتقد بعض الناس أنّ الأساطير مجرد قصص تروى لا هدف من ورائها سوى التسلية و المتعة، ويخطيء هؤلاء إذ يأخذون الأساطير على أنّها خرافة فحسب، ليس فيها من الواقع أو الأهداف شيء سوى ما تضمّ من خيالات غريبة شاردة .فما كانت الأساطير شيئا
من ذلك أبدا .وإلاّ لما استطاعت قطّ أن تكون هي العمد الخالدة التي قامت عليها أركان الأدب العالمي .ولما أصبحت هي الجذور التي تفرّعت منها الألوان المتباينة من الآداب و الفنون.
فقد رافقت الأسطورة الإنسان منذ نشأته وما تزال ترافقه .

هذه الأساطير تدرس حتى الآن لأنّ لها تأثيرا عميقا على جميع الآداب العظمى، وإنّه لحقيقي أن الأساطير الإغريقية و الرومانية قد أثرت تأثيرا عميقا، ولاسيما في الادبين الإنجليزي و الأمريكي .وقد أعجب كتاب

اللغة الإنجليزية العظام بالقصص التي حكاها القدماء، وقلّما نستطيع فهم شكسبير أو ملتون أو كيتس دون أن نلمّ بالأساطير الإغريقية و الرومانية .وكذلك تلعب آلهة الأساطير و أنصاف آلهتها و أبطالها أدوارهم أيضا في الموسيقى .وهناك مؤلفات عديدة للعروض الموسيقية و الصوتية أوحت بها الشخصيات القديمة التي تروى قصصها في تلك الأساطير .وزيادة على ذلك فإن للأساطير تأثيرا قويّا على الفنون الأخرى فقد فعل عظماء المصوّرين، و النّحاتين في جميع العصور مثلما فعل الموسيقيون إذ وجدوا في هذه الأساطير القديمة إيحاءً لأجمل أعمالهم ثمّ إن هذه الأساطير حلقة اتّصال هامة بالماضي، وكثيرا ماتكون هي المصدر الوحيد لمعارفنا عن الكيفية التي نظر بها أسلافنا الأقدمون إلى العالم ، وكيف فسّروا ظواهره العديدة.

وعليه فإن قراءة التاريخ القديم دون الأسطورة، أمر غير تام، باحتسابنا الأسطورة السجل الأمثل للفكر وواقعه في مراحله الإبتدائية، عندما كان يحاول تفسير الوجود من حوله، ويحاول قراءة الواقع الاجتماعي و تغييره، هذا بالطبع مع ما تنقله لنا الأسطورة من بصمات و انطباعات النفس الجماعية، ونقول الجماعية لأن الأسطورة لا يمكن لأحد أن يد عي حق
تأليفها، فهي مجهولة الأصل و المؤلف بل و أحيانا المنشأ و التاريخ.

الأسطورة قصة مقدسة محورها الآلهة وأنصاف الآلهة

والأسطورة (بالإنجليزية: Myth) هي شكل من أشكال الأدب الرفيع، وهي قصة تقليدية ثابتة نسبيًّا مُصاغة في قالب شعري يساعد على ترتيلها وتداولها شفاهة بين الأجيال، وهي مقدسة، ولا تُشير إلى زمنٍ مُحددٍ بل إلى حقيقة أزليَّة، من خلال حدث جرى، وهي ذات موضوعات شمولية كبرى، مثل: الخلق، والتكوين، وأصول الأشياء، والموت، والعالم الآخر؛ ومحورها الآلهة وأنصاف الآلهة، وللإنسان فيها دور مكمل لا رئيسي. وهي، بعد ذلك، لا مُؤلف لها بل هي نتاج خيالٍ جمعيّ أي هي ظاهرة جمعية تعبر عن تأملات الجماعة وحكمتها وخلاصة ثقافتها. وقد آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها له الأسطورة، مثل: عالم الشياطين والآلهة، وكان الكفر بمضامينها يعد كفرًا بكل القيم التي تشد الفرد إلى جماعته الثقافية. وترتبط الأسطورة، أيضًا، بنظامٍ ديني معين وتتشابك مع معتقداته وطقوسه المُؤسسة له، وإذا ما انهار النظام الديني الذي ترتبط به فإنها تفقد كل مقوماتها كأسطورة، وتتحول إلى حكاية دنيوية وتنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الأدبية الشبيهة بالأسطورة، مثل: الحكاية الخرافية، والقصة البطولية، والحكاية الشعبية. ومن جهة أخرى، تُعتبر الأسطورة على أنَّها نوع من الفولكلور يتكون من قصص تلعب دورًا جوهريًّا في المجتمع، مثل: حكايات التكوين أو أساطير البدء. فهي بالإضافة إلى شخصياتها الرئيسية، الآلهة وأنصاف الآلهة، تتضمن شخصيات ماورائية أو خارقة أيضًا.] وهُناك مَن يُضمِّن البشر أو الحيوانات أو كليهما معًا في الأسطورة عندما يتعرضون لتصنيف الأسطورة على أنَّه عادة ما تُضمَّن حكايات البشر العاديين، الذين غالبًا ما يكونون قادة من نوع ما، في السيرة البطولية أو الليجندة (بالإنجليزية: legends) بدلًا من الأساطير (بالإنجليزية: myths ولذلك، تُميَّزُ الأساطير عن السير البطولية في أنَّها تتعامل مع الآلهة، وجرت العادة ألَّا يكون لها منطلق تاريخي، وزمنها هو اللازمن أو الماضي الخيالي الذي يختلف عمَّا نألفه في الحاضر.

لوحة «بروميثيوس يتلقى عقاب الإله زيوس» (1868) للرسام الفرنسي غوستاف مورو. جاء عقابه نتيجة لقيامه بإعطاء النار للبشريَّة.

تحظى الأساطير، غالبًا، بتأييد الحُكام والكهنة أو الكاهنات وترتبط ارتباطًا وثيقًا بالدين أو الروحانية. وتعمد العديد من المجتمعات إلى جمع أساطيرها وحكاياتها البطولية أو الخرافية وتاريخها معًا، معتبرين أنَّ هذه الأساطير والحكايات البطولية هي توثيقات وروايات حقيقة لماضيهم السحيق وخُصوصًا، أساطير الخلق التي تتخذ من الزمن البدائي مسرحًا لحدوثها حيث لم يكن العالم قد اتخذ شكله اللاحق بعد. بينما تُفسر أساطير أخرى كيف أُنشئت وقُدِّست عادات المجتمع ومؤسساته ومحرماته.

المحاضرة الثانية:

خصائص الأسطورة:

وفي آراء الأدباء بموضوع الأسطورة وتعريفاتها فيرى أحمد كمال زكي أن الأسطورة هي علم قديم أي من العلوم الأولى وأن الأسطورة هي من أقدم المصادر الخاصة بالمعرفة الإنسانية، ويضيف أن كلمة أسطورة ترتبط ببداية الإنسان الأولى، فالأسطورة هي بداية حركة حضارية متصلة الحلقات، أمّا فراس السواح فقد قدّم اختلافًا بين النص الأسطوري والنصوص الأخرى، ومن الاختلافات والمعايير التي حددها فراس السواح وقسمها فيما يأتي :

من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة بما تحويه من حبكة وعقدة وشخصيات مصاغة في قالب شعري يساعد على سرعة تداولها وحفظها ويزودها بأثر على العواطف والقلوب.

يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة دون أن يعني ذلك الجمود أو التحجر، فالفكر الأسطوري قادر على خلق أساطير جديدة أو تجديد الأساطير نفسها أو تعديلها.

تتميز موضوعات الأساطير بالجدية والشمولية، مثل مواضيع التكوين والأصول والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسرّ الوجود، وهي تشترك في موضوعاتها مع الفلسفة إلا أنّ الفلسفة تلجأ إلى المحاكمة العقلية للمفاهيم والعلوم بينما تلجأ الأساطير إلى الخيال والعاطفة والترميز.

تبعث الأسطورة رسالة غير زمنية وغير مرتبطة بفترة ما، بل إنها رسالة سرمدية خالدة تنطق من وراء تقلّبات الزمن الإنساني تجعلها أكثر صدقًا وحقيقة عند المؤمن بها من أي مضامين تاريخية أو روائية أخرى.

وبذلك، فإنّ تعريف الأسطورة لغة واصطلاحًا يمثّل ملخّصًا للمفاهيم والأفكار المُعبَّر عنها بالكتابات والرسوم المتداوَلة، وترتبطُ الأسطورة ببداية الحياة على الأرض، إذ ابتُدِعت الأساطير للتعبير عن الأفكار والعقائد والأخلاق والنظرة إلى الكون والحياة والإنسان.

تتكون الأسطورة من رواية رائعة يتم تنفيذها من قبل الآلهة ، من قبل الأبطال والشخصيات الرائعة ، والتي تقع قصتها خارج وقت تاريخي ، في الوقت نفسه ، تتعامل مع شرح بعض الأحداث أو الظواهر.

الخرافات هي جزء لا يتجزأ من نظام المعتقدات التي يمتلكها شعب أو ثقافة معينة.

وربطوا معا الأساطير.

الأساطير ، بشكل عام ، تجلب لنا تفسيرات حول أصل العالم ، الآلهة ، الخير والشر ، وفاة الإنسان على الأرض وقصص حول نهاية العالم ، من بين أمور أخرى.

إنهم يميلون إلى الإجابة على الأسئلة الوجودية مثل من أين أتينا ، من نحن حقًا ، إلى أين نتجه ، ولماذا نحن في هذا العالم ، من بين أمور أخرى.

تم تنظيم كل هذه الإجابات على هذه الأسئلة نتيجة لانتقالها عن طريق الفم ، من جيل إلى جيل.

من جانبها ، فإن الأسطورة هي قصة تقليد شعبي له أساس تاريخي ، أي أنه يمكن تحديده في خط زمني ويتعامل مع محاسبة الأحداث الطبيعية أو الرائعة.

إنه في خضم الأسطورة والواقع ، وكما هو الحال مع الأساطير ، تم نقله واستمر عبر الزمن من خلال التقليد الشفوي من جيل إلى جيل.

الفرق الرئيسي فيما يتعلق بالخرافة هو أنها تتعامل مع قصص الشخصيات النموذجية مثل الأبطال والأشرار ، من بين آخرين ، بينما تكشف الأسطورة قصص الآلهة أو المخلوقات الرائعة.

من ناحية أخرى ، نستخدم الكلمة أيضًا لحساب مجموعة الشخصيات والأبطال والأفكار والنظريات ، من بين أمور أخرى ، التي تشكل الأساطير ، وتعيين دراسة الأساطير .

موضوعات الأسطورة:

تتعلّق معظم الأساطير القديمة بالآلهة، وهذه الآلهة التي كانت تتمتع بتعدادها واختصاصها بالطبيعة، فكانت الآلهة في الأسطورة تتمتع بقوى خارقة ولكنها بالمقابل كانت تنساق وراء العواطف كالحب، وكانوا يمرون بالتجارب الإنسانية كالولادة والموت، كانت الأساطير مجرد خرافات وتخيّلات وأوهام لتفسير أحداث كونية، ولم تكن تستند إلّا إلى الظن، ولكن الأسطورة بالنسبة للقارئ الآن هي ليست مجرد قصص بل أصبحت وثائق تنقل لنا العادات القديمة المختلفة وطرق الحياة المتعددة.

قسمت موضوعات الأساطير إلى مجموعتين هما: أساطير الخلق وأساطير التعليل، يقصد بأساطير الخلق هي التي تحاول أن تدخل بموضوعات الكون وتفسر خلق البشر وظهور الآلهة، أمّا الأساطير التعليلية فإنها تهدف إلى تفسير الظواهر الطبيعية، فتعلقت موضوعات هذه الأساطير بمسائل الموت والحياة والشمس والبحر والطبيعة جلّها، وتداخل الخير والشر في حبكتها.

أنواع الأسطورة:

1- **الأسطورة الطقوسية :**و يرى أحمد كمال زكي أن هذه الأسطورة ارتبطت أساسا بعمليات العبادة، مهما يكن شكلها، و طريقتها وعنيت برصد الجزء الكلامي من الطقوس قبل أن تصبح حكاية لهذه الطقوس .ويمتاز ذلك الجزء بقوى سحرية خفية ليتمكن منشده من أن يسترجع الموقف الذي يصفه .ونستطيع أن نقدّم نشيد " إينوما إيليش "الذي ينشده الكهنة مثالا لهذا النوع .وقد ارتبط النشيد أو الترنيم بطقوس جنائزية في عيد أوّل السنة عند البابليين حيث تتمثل كل ملامح أسطورة الخلق.
ويجعل بعض الباحثين لهذه الأسطورة الطقوسية نظيرا عند المصريين .ونقصد أساطير أوزيريس .وهي تسمى هكذا لأنها تصف الكون وعملية الخلق و حياة الإنسان.
ويرى هوك أنّ التشابه كبير بين أسطورة الخليقة في حكايات المصريين و ملحمة الخلق الآكادية.
2 - **الأسطورة التعليلية :**لم تجد هذه الاسطورة طريقها إلى الوجود إلى بعد أن ظهرت فكرة وجود كائنات روحية خفية في مقابل ماهو كائن من الظواهر الطبيعية كالرعد وانفجار البركان و انشقاق الأرض عن الزرع، ويبدو أن طائفة من رجال الدين استطاعت أن توهم الجماعة بأنها على اتصال بهذه الكائنات اللاّشخصية فوُجد السحر، وكان في مبدئه إيمانا بقوى موجودة في بعض الأحجار النفيسة، أو التي تأخذ شكلا مثيرا، حيث يفسح المجال للقول بأن روحا تكمن فيها ويمكن استمالتها عن طريق تقديم القرابين و الأضاحي لها .وكان السحرة يدّعون لأنفسهم القدرة على إخضاع الآلهة .ممّا أوجد فيما بعد صراعا بين السحرة من حيث كونهم كهنة أو علماء و بين التفكير الشعبي الذي كان يحاول من ناحيته وبدون الإستعانة بوسيط أن يقدّم التعليلات لكلّ ما يراه مفزعا، أو مثيرا .و تمكّن التعليل الأسطوري من هنا أن يتحرّر من سيطرة الوسيط ويقول فيما يرى ما يشاء، من تفسير عمليات شروق الشمس و غروبها، وازدهار الأرض في الربيع، وثورة البحر.
3 - الأسطورة الرمزية :و هي مرحلة اكثر تعقيدا من المراحل التي قطعتها أساطير الطقوس و التعليل، او لعلها أكثر قربا من الأسطورة التعليلية بوجه عام، لأنها تعبّر بطريقة مجازية عن فكرة دينية أو كونية، نفهم ذلك إذا قرأنا في الاساطير العربية أنّ " الغميصاء" أو "الغموص "كانت هي وسهيل و الشعرى في

مجرة واحدة، فانحدر سهيل و الشعرى و عبر المجرى إلى اليمن، وبقيت الغميصاء وحيدة تبكي حزنا على فقدها سهيلا حتى غمصت عيناها، وكذا تبدو دائما في السماء أسيفة موجعة.

4 - التاريخ المؤسطر :وهي تاريخ و خرافة معا، وتتضمن عناصر تاريخية و مجموعة خوارق تأخذ إطار الحكاية، وهذه الحكاية لأنها تتعلق بمكان واقعي أو بأشخاص حقيقيين تنقل بالتواتر من جيل إلى جيل ومنها في تراثنا حكاية " داحس و الغبراء " و في تراث الإغريق " حرب طروادة " و عند البابليين " ملحمة جلجامش "على أنّ هذه الأنواع من الأساطير ليست محدودة تماما، فهي دائمة التداخل.

المحاضرة الثالثة:

الأسطورة في حياة عرب الجاهلية:

من الصعب دراسة الأساطير العربية القديمة بشكل علمي، لأن مصادر التاريخ قليلة وغير موضوعية، والأدب العربي القديم ضاع بسبب عدم وجود الكتابة عند العرب، ومعظم ما كتب عن تاريخ الجاهلية كان بين 500 و622م أي مئة سنة قبل الإسلام، وقد وصلتنا عن طريق النقوش والرواة أخبار متقطعة مبعثرة مثل الأساطير البابلية التي اكتشفت في الألواح السبعة ونقوش الساميين الشماليين، والأدب العربي الذي نعرفه يتعلق بالجاهلية قبل الإسلام بفترة قصيرة، حيث دونه الكتاب ووصلنا عن طريقهم مثل سيرة ابن هشام، وأخبار عبيد بن شرية، والإكليل، وحياة الحيوان للدميري، وفي كتب المتأخرين مثل الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ومروج الذهب للمسعودي، والأزرقي، والبلخي، والقزويني، والثعالبي، والألوسي.

كانت الأسطورة عند عرب الجاهلية تمثل علاقتهم بالكائنات، وآراءهم في الحياة، ومشاهداتهم، وكانت مصدر أفكارهم، ألهمتهم الشعر والأدب ، وكانت الدين والفلسفة معاً.

لم يستطع العربي الجاهلي أن يتصور ما وراء الطبيعة، ولم يتخيل حياة بعد الممات، وطبيعة بلاده الصحراوية جعلته يؤمن بالدهرية، ويقدس الحجر، والحيوان، والأشجار.

تأثر العربي الجاهلي بالوثنية البابلية، وحين اشتهرت الأديان في شبه الجزيرة العربية، تأثر بالأديان اليهودية والمسيحية، وتأثر بآراء الصابئة خاصة في عبادة النجوم.

وحسب آراء المؤرخين المهتمين بأنساب العرب، يشترك العرب مع الفينيقيين والآشوريين والبابليين في أصولهم لأنهم يتشابهون في أجسادهم وعاداتهم، ثم افترق العرب عنهم وصار لهم مميزات خاصة بسبب بيئة البادية. فالعرب هم بقايا الشعوب السالفة المبعثرة ، وحسب رأي الباحث رابرتسن سميث "إن الأمم التي تشعبت من أصل واحد قد تشترك في اتخاذ العقائد والشعائرالوراثية دينية أو غير دينية".

أثرت البيئة الصحراوية في الحجاز ونجد على طبيعة العرب، فالأشجار نادرة، والآبار والعيون قليلة، مما جعل العربي الجاهلي يصبح اتكاليا، يعتمد على القضاء والقدر، وينتظر المطر، ولا يميل إلى الأمور المعقدة، وكان صافي الذهن يحب الكلمة الصريحة والبيان الواضح، وقد وصف العربي القديم المرئيات بدقة، ومالت غرائزه إلى المادة أكثر من المعاني والروح، وعرف العرب بالعرافة التي تمثل طورا من تطور أوهام العرب بدأ من الطيرة والتفاؤل والتشاؤم، وتطور حتى وصل إلى عبادة وتقديس الأصنام، وصار العربي يستقسم بالأزلام، والعرافة عند العرب نظرية مادية بحتة مبنية على الاستنباط من المحسوسات والعلامات، وعرف العرب أيضا بالفراسة والقيافة ومعرفة الأثر.

خلط الجاهليون معنى الدهر بالقضاء والقدر وتطورت هذه العقيدة حتى خضعوا لسلطان (مناة وعوض)، وهي أصنام تعني الدهر ، فصار الدهر إلها من آلهة العرب، وكانت غايتهم الخلود. وفي الأساطير العربية أن الملك ذو القرنين طمح إلى الخلود، ووصل مع الخضر إلى عين الدهر، يشرب منها الماء الذي يعطيه حياة أبدية، لكنه منع من ذلك، وطمح لقمان بن عاد إلى الخلود، وارتبط خلوده ببقاء سبعة نسور على قيد الحياة آخر نسر اسمه لبد ويعني الدهر، لكن النسور ماتت واحدا تلو الآخر حتى جاء دور لبد الذي مات وانتهت حياة لقمان بموته.

كان خيال الجاهليين قادرا على توليد الأسطورة والخرافة بشكل تصوري، فقد تصوروا الأشياء، واسترجعوا التجارب وركبوا صورهم الشعرية المادية المحسوسة، وتصورهم السمعي هام يظهر في الأساطير العربية، وفكرتهم عن الأشياء الروحية تأخذ تصورا ماديا، فقد تصوروا الروح في شكل الهامة، والعمر الطويل في شكل النسر، والشجاعة في شكل الأسد، والأمانة في الكلب، والصبر في الحمار، والمكر والدهاء في الثعلب.

عرفت بعض مظاهر الطوطمية عند الجاهليين، وهي تقديس الحيوان ويكون هو الطوطم، وهناك قبائل تسمت بأسماء الحيوان، مثل بني كلب، وبني نعامة، وظنوا أن الحيوان يحميهم كما يحمي الطوطم أهله، وكانوا يكفنون الحيوان ويدفنونه مثل الإنسان، ويحزنون عليه، وتفاءلوا بالطير، ونباح الكلاب على مجيء الضيوف، وتشاءموا من الثور مكسور القرن، والغراب، فقيل: "أشأم من غراب البين"، وعبدوا الشاة، وغيرها من الحيوانات، ولم يكن هناك حيوان مخصص لقبيلة بعينها . وتظهر الفكرة الطوطمية في تصور الجن حيث اعتقدوا أنهم خلقوا من بيضة، وأنهم من نسل الحيوان، وكذلك الغيلان والسعالى والهوام، حسب قول المسعودي في مروج الذهب، وتطورت فكرة الجن بحيث إذا تحولت السعلاة إلى صورة امرأة تبقى رجلاها مثل رجلي الحمار أو العنزة. ونسبوا الأفراد والقبائل إلى نسل الجن، وقيل إن بلقيس ملكة سبأ وذي القرنين من أولاد الجن، وكان الجن يمثلون قوة الشر التي يقاومها شجعان القبيلة مثل تأبط شرا، ولم تكن الجن طوطما ولا أبا للعرب لأنهم خافوا منها.

وفي الأساطير العربية يمسخ الإنسان حجرا أو شجرا أو حيوانا، جاء في عجائب المخلوقات للقزويني أن الصفا والمروة كانتا رجلا وامرأة ثم مسخا صخرتين، وفي حياة الحيوان للدميري ورد أن أساف ونائلة كانا رجلا وامرأة فصارا صنمين، وجاء في أخبار مكة للأزرقي أن العربي لم يأكل الضب لأنه كان بظنه شخصا إسرائيليا مسخ، وقال المقريزي في أخبار وادي حضرموت العجيبة إنه كان بوادي حضرموت على مسيرة يومين من نجد قوم يقال لهم الصيعر يسكنون القفر في أودية، وفرقة منهم تنقلب ذئابا ضارية أيام القحط، وإذا أراد أحدهم أن يخرج إلى هيئة الإنسان تمرغ بالأرض، وإذا به يرجع إنسانا سويا.
واختلفوا في رؤيتهم للمسخ، بعضهم زعم أن المسخ لا يتناسل، ولا يبقى، وبعضهم زعم إنه يبقى ويتناسل، حتى جعلوا الضب والأرانب والكلاب من أولاد تلك الأمم التي مسخت في تلك الصور كما جاء في كتاب الحيوان للجاحظ.

ومن معتقدات الجاهليين أن الجبال تؤثر في الإنسان، فجبل أبي قبيس يزيل وجع الرأس، وجبل خودقور يعلم السحر. واعتبروا شجرة النخيل من أقربائهم، وتصوروا أنها تشبه الإنسان ، وكان الجاهلي يجعل شجرة الرتم حارسا على زوجته أثناء غيابه، وقد قدسوا الأشجار وعبدوها، فكانت طوطما، ورأوا روح الشر في بعضها مثل الحماطة وهي شجرة تشبه شجرة التين، وعبد العرب كل ما يتعلق بالأشجار من أغصان وجذور وقشور، وعبدوا العظم والريش والناب والمخلب والحافر والسن والظفر والحجر، وقدموا لها القرابين، واتخذوها تميمة تحميهم، وكانوا يعلقون على الصبي سن ثعلب وسن هرة خوفا من الخطف والنظرة. وعبدوا النار وكانوا يرونها في الأشجار، وبطون الأحجار، والجبال.

عبد الجاهليون الأصنام التي تحولت حسب العصر، لكنها لم تصل إلى مرتبة الآلهة حتى القرن السادس قبل الميلاد، لأن الجاهلي لم يكن يعتقد أن الصنم خلقه أو خلق الكائنات، فكان تارة يقدسه، وتارة يسبه ويشتمه، وقد يصنع صنما من التمر، وحين يجوع يأكله، وتأثر الجاهليون بالوثنية البابلية والرومانية واليمنية، فعبدوا الزهرة، ومردوخ، أو بعل إله الشمس والمطر والخصب مثل البابليين. وكلمة صنم أصلها آرامي، فقد ورد عن أصنام تهامة أن لوح تهامة يذكر أسماء الأصنام الآرامية الثلاثة صلم وسنكال وعشرة، وصلم هو بعل نفسه، ولم ينحت العرب الأصنام بل جلبوها من الخارج، وأشهرها هبل وهو إله الخصب، وهو نفسه مردوخ في بابل، ويسمى تموز أيضا في بابل، وهو من أعظم الأصنام التي نصبتها قريش في جوف الكعبة، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، جعلت له قريش يدا من ذهب، وكان إله مكة والكعبة، ومناة ويعني المنا أي القدر، وكان هذا الصنم منصوبا على ساحل البحر بين المدينة ومكة، وعبده الهذليون وعظمه كل العرب خاصة الأوس والخزرج. واللات وهي اسم للشمس وقد أخذها العرب عن النبطيين وكانت صخرة مربعة بيضاء في الطائف ، ونسبوا لها فصل الصيف.
والعزى، وهي نفسها عشتار عند البابلية، إلهة فصل الربيع والحب، وكان لها تمثال أو رمز تحمله قريش في حروبها، وسميت الزهرة، ونجمة الصبح. وود ويعني شجرة الحب في البابلية، وقيل إنه صنم إغريقي الأصل لأنه يشبه الصنم إيروس إله الحب عند اليونان، فكان تمثاله على شكل رجل يرتدي حلتين، وقد تقلد السيف، وتنكب القوس ، وبين يديه حربة وجعبة فيها نبل، وقد استمرت عبادته من عصر النبي نوح عليه السلام حتى العصر الإسلامي، وكان يمثل الحب عند الجاهليين، وهناك أصنام أخرى لا يتسع المجال

لذكرها، ثم تأثر الجاهليون باليهود والمسيحيين، ومزجوا وثنيتهم باليهودية، فكان لكل قبيلة صنم يعبدونه ويحلفون به، ويعتبرونه إلههم، وهكذا نرى أن الجاهليين لم يعرفوا معنى التوحيد، عدا بعض الأشخاص مثل ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، الذين اعتنقا المسيحية، وغيرهم من الحنفاء، حتى جاء النبي محمد برسالة الإسلام والتوحيد، وعبادة الله الواحد.

✓ أنواع الآلهة :

آلهة اليمن القديم.
نصب اللات، منحوتة تدمرية، القرن الأول الميلادي

- الله: سيد الآلهة وكبيرها، فهو الخالق والرازق ومنزل المطر. كانت العرب تتقرب إليه بطلب الوساطة من الآلهة الأدنى.
- اللات: إلهة الخصوبة عند العرب قبل الإسلام وتمثل كذلك الأرض وأخواتها هن العزه ومنات وهؤلاء الأصنام هن الغرانيق العلى وممن عبد اللات بني ثقيف.
- هبل: هبل هو أحد المعبودات لدى العرب القدماء قبل الإسلام، وهو صنم على شكل إنسان وله ذراع مكسورة، قام العرب بإلحاق ذراع من ذهب بدل منها.كان موجودا داخل الكعبة وقد كان يطلق عليه لقب صاحب القداح.ويقال إن هبل أيضا هو إله الشمس.
- مناة: أقدم أصنام العرب،وهى الاهة القدر أو المصير نصبت على ساحل البحر من ناحية الشمال بقديد بين مكة والمدينة. وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما حولهما

- العزى: كانت تمثل كوكب الصباح وقد عبد هذا الإله قبائل بني سليم وغطفان وجشم ومن المعتقد أنها نفس الإلهة أفروديت عند الرومان ونفسها هي إيزيس إلهة من مصر القديمة وتستطيع تتبع آثارها في البتراء بوضوح تام ذو الشرى، منحوتة نبطية وجدت جنوب سورية ومحفوظة في متحف دمشق الوطني.

- طاغوت: وهو الشيطان (إبليس) ورد اسمه في القرآن.
- ذو الشرى: أحد آلهة العرب في جنوب سوريا، كان معبودا في المنطقة
- ود: واد أو وَدّ إله بشكل رجل وهو إله بني كَلْبٍ بِدُومَة الْجَنْدَل قال الماوردي:
- سواع: إله بشكل إمرأة وهو إله بني هُذَيْل
- يعوق: ياعوق أو يَعُوق إله بشكل حصان وهو إله بني همدان وَفِيهِ يَقُول مَالِك بْن نَمَط الْهَمْدَانِيّ:

- نَسْر: إله بشكل نسر وهو إله بني حمير
- يغوث: كان من آلهة قبيلة مراد ثم لبن عُطيف بالجرف عند سبأ وقال فيه أبو عثمان النهدي:

- إساف: وهو صنم كان مكانه على الصفا وهناك حكاية تروى عن قصة عشق بين اساف ونائلة، وملخص الحكاية ان اساف ونائلة كانا يعشقان بعضهما لكنهما مارسا الرذيلة داخل الحرم فمسخا إلى صنمين احدمها على الصفا واللآخر على المروة.
- نائلة: إله فوق جبل المروة من آلهة مكة
- دوار: إله كانت له حظوة عند الفتيات الصغار السن.
- ذو الخلصة: إله صنم كانت تعبده قبائل بجيلة وخثعم وأزد السراة وبنو الحارث بن كعب وجرم وزبيد والغوث بن مر بن أد وبنو هلال.
- عائم: إله صنم كانوا يعبدونه قبائل أزد السراة.

✓ المخلوقات الخارقة:

*الأرواح: وتشمل الجن والعفاريت والمردة، وتتميز تلك المخلوقات حسب الاعتقادات القديمة بقدراتها الخارقة للطبيعة وتحكمها في حياة البشر.

*الوحوش: ومنها النسناس، والغول، والبهموت، والتي كان يعتقد أنها سمكة ضخمة تحمل الأرض على ظهرها وكان يعتقد أن رأسها تشبه رأس وحيد القرن أو الفيل.

المحاضرة الرابعة:

مفهوم الميثولوجيا:

يُشير مصطلح ميثولوجيا، والذي تُرجم إلى «علم الأساطير أو علم دراسة الأساطير»، إلى فرع من فروع المعرفة يُعنى بدراسة الأساطير وتفسيرها. أما المعنى الثاني، فهو يشير إلى مجموعة من القصص التقليدية أو المقدسة أو التي تتحدث عن الآلهة، وهي في جميع الأحوال لا تسيء إلى الآلهة أو الدين؛ لأن كلمة أساطير ذكرت في الكتاب المقدس أي القرآن، وتعبر عن القصص القديمة للأولين، وهذا مبرر للكتب المسيحية التي أطلقت كلمة أساطير؛ لأنها بهذا لا تسيء للدين المسيحي. ربَّما درس القدماء الأساطير، ولكنَّ علم الأساطير لم يتأسس بالمعنى العلمي الدقيق إلَّا في القرن التاسع عشر، مثل بقية العلوم الإنسانية. وهناك أربعة مدارس ذات مناهج علمية دقيقة تدرس الأسطورة، وهي: المدرسة اللغوية، والمدرسة الأنثروبولوجية، والمدرسة الوظيفية، والمدرسة النفسية. أمَّا الدراسات التي تختص بمقارنة الأساطير من ثقافات مختلفة في محاولة لتحديد الثيمات والخصائص المشتركة فيعرف بعلم الأساطير المقارنة أو الميثولوجيا المقارنة .

نظرًا لاستخدام مصطلح الأسطورة على نطاق واسع ليُشير إلى أنَّ القصة ليست صحيحة بشكل موضوعي، فإن تحديد سرد ما باعتباره أسطورة يمكن أن يكون سببا في إثارة جدل كبير، حيث يرى العديد من أتباع الديانات أن قصصهم الدينية صحيحة، وبالتالي يعترضون على وصف تلك القصص بأنَّها أساطير، لكنهم يرون أنَّ قصص الديانات الأخرى ما هي إلاَّ أسطورة. وعلى هذا النحو، يصف بعض العلماء جميع الروايات الدينية بأنها أساطير لأسباب عملية، وذلك تجنبًا للتقليل من قيمة أي تقليد ولأن الثقافات تنظر لبعضها البعض بصورة مختلفة. ويتجنب علماء آخرون استخدام مصطلح «الأسطورة» تمامًا وبدلاً من ذلك يستخدمون مصطلحات مختلفة مثل «التاريخ المقدس» أو «القصة المقدسة» أو ببساطة «التاريخ»؛ لتجنب وضع إيحاءات ازدراء على أي سرد مقدس.

وتأتي دراسة الأساطير على هذا النحو في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد دراسة اللغة والفنون والفلسفة والعلوم عند الشعوب.

الميثولوجياMythologie (أو علم الأساطير) أحد العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تولي اهتمامها بقضايا الإنسان وتاريخه، وتولي اهتمامها الأول بدراسة الأسطورة وتفسيرها بوصفها ظاهرة ثقافية اجتماعية شديدة التعقيد، وتعتمد في تحليلها على وجهات نظر ورؤى متباينة تختلف باختلاف الفلسفات الاجتماعية السائدة في عصر من العصور.

إن الأسطورة بصورة عامة رواية ممتلئة بالرموز والدلالات الثقافية التي ترمي إلى تفسير جملة من الظواهر الاجتماعية، وهي تحاول تفسير ظهور العالم والخلق والإنسان والحيوان والعادات والتقاليد التي يعيشها الناس، كما أنها تحاول تفسير الأصول التاريخية للنشاطات الإنسانية والعقائد والأفكار.

وقد تستمد الأسطورة قسطاً من عناصرها من التاريخ الحقيقي المدوّن للمجتمع، ومن الخصائص الطبيعية المكانية التي يعيش فيها الناس، مما يجعل للأسطورة صلة وثيقة بالتاريخ مع احتفاظها بخصوصياتها التي تميزها منه، بانطوائها على عناصر خارجة من الزمن والمكان؛ على خلاف الحدث التاريخي الذي يقيده حدود المكان، وتحدده مسارات الزمان.

وفي حين تلج الرواية التاريخية إلى وعي الناس من خلال عقولهم وتفكيرهم النقدي ومناقشتهم تفاصيلها؛ مما يجعلها قابلة للنقد والأخذ والرد؛ يلاحظ أن الناس تتقبل الأسطورة بقدر كبير من التسليم الإيماني الذي يجعلها أمراً مسلماً به على نحو مطلق، وفي حين يحاول الناس فهم الحدث التاريخي من خلال ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يعيشون فيها؛ يحاولون فهم الواقع بأجزائه وتفاصيله من خلال المعاني والرموز التي تنطوي عليها الأسطورة، فهي أقوى في معانيها ودلالاتها من الحدث التاريخي، وقد

يسقط المرء فهمه للحدث التاريخي وللواقع المعاصر من خلال ما تنطوي عليه الأساطير من دلالات ورموز ثقافية.

وارتباط الأسطورة بالمقدس غالباً ما يكون أكبر من ارتباطها بالواقع مع عدم إغفال الصلة بينهما والتي بفضلها تفهم العقائد والشعائر والطقوس المكونة للثقافة في المجتمع، فصلة الآلهة بالطبيعة والإنسان والمجتمع، وتفسير آلية الخلق أكبر من أن تحدّ بزمان أو مكان؛ ولهذا تخرج عن حدودهما، ولكن الأسطورة تعود؛ لتنهل منهما بعض عناصرها؛ لتصبح أقرب إلى وعي الناس وفهمهم، فتسبغ على ذاتها القدسية التي تجعلها خارجة عن حدود النقد أو الرفض، وغالباً ما تنطوي على عناصر الثواب والعقاب التي تجعل منها أكثر قوة وتماسكاً.

وتشترك الأسطورة مع كل من الحكاية والخرافة وغيرهما من المفاهيم المشابهة لها في بعض الوجوه، وتختلف عنها في وجوه أخرى، ذلك أن هذه الأنماط من الإنتاج الفكري الإنساني لا تنطوي بالضرورة على ما هو مقدس، فالحكاية قد تروي قصص أبطال مغامرين ومتفوقين على غيرهم من الجنس البشري دون أن يتصفوا بالقداسة بالضرورة، كما هي الحال في الحكاية التي تحمل في مكوناتها قدراً من الأماني والرغبات التي يتطلع إليها الناس، وتستلهم من الوقائع التاريخية بعض عناصرها بعد تضخيم عناصرها الأخرى، كما هي الحال في الحكايات المروية عن أبطال الخير والشر والدفاع عن الإنسان وحقوقه وما شابهها، أما الخرافة فهي الرواية التي تفتقر إلى الحدود الدنيا من الواقعية والصدق، وتأتي كلها أو الجزء الكبير منها من صنع الخيال الإنساني.

ويعود الاهتمام بدراسة الأسطورة وفهمها من الناحية العلمية بوصفها نتاجاً للفكر الإنساني إلى القرن الثامن عشر؛ مع الفيلسوف الإيطالي جامباتستا فيكو Giambattista Vico الذي أخذ بدراسة الأسطورة في ضوء الوقائع التاريخية، وكان له الفضل في إظهار دور الفكر الإنساني في إنتاج التصورات وأهمية الخيال البشري في صنع الأساطير. وفي القرن الثامن عشر ظهرت مجموعة من الأعمال التي حاولت دراسة الآداب والفنون في ضوء تطور الأسطورة ذاتها لدى كل شعب من الشعوب الإنسانية، ومن أكثر الأعمال شهرة في هذا السياق ما قدمه كل من فريدريش ماكس مولر(Friedrich Max Muller)الذي وجد أن الأسطورة ما هي إلا نموذج لتطور اللغة تاريخياً، وميشيل بريَل (Michel Bréal) الذي أولى اهتماماً كبيراً بعلم المعاني والدلالات التي تنطوي عليها تعابير اللغة بما فيها المعاني والدلالات التي تحملها الأسطورة، ويأتي ذلك في سياق ربط الأسطورة باللغويات.

غير أن دراسة الأسطورة في سياقها الاجتماعي والتطوري انتشرت انتشاراً واضحاً في أعمال مجموعة من علماء الأنثروبولوجيا، كما في أعمال جيمس جورج فريزر(Frazer (Sir James George) الذي ميز بين ثلاث مراحل أساسية في تطور الفكر الإنساني؛ أولها السحر، ثم الدين، وأخيراً العلم، واهتم خصوصاً بدراسة الأسطورة والدين والأساطير البدائية، ويمضي عالم الاجتماع الفرنسي لوسيان ليفي برول (Lucien Levy-Bruh) في المسار ذاته عندما يجد أن الأسطورة تعكس نمط التفكير البدائي للإنسان؛ وأنها تعدّ مرحلة تاريخية مهمّة من مراحل تطوره.

كما يأخذ مارسيل موس (Marcel Mauss) بمعالجة الأسطورة في سياق وظيفتها الاجتماعية معتمداً في ذلك على نظرية عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم Émile Durkheim الذي جعل من الوظائف التي تؤديها الظواهر مدخلاً أساسياً لدراستها، ويمضي في الاتجاه ذاته الأنثروبولوجي البريطاني برونيسلاف وكاسبر مالينوفسكي(Bronislaw Kasper Malinowski) الذي وجد أنه لا يمكن فهم الأسطورة إلا في ضوء ما تؤديه من وظائف اجتماعية تسهم في تحقيق قدر كبير من التوازن في التفكير والتفاعل مع المتغيرات البيئية بصورة عامة، وبوساطة الفهم الوظيفي يمكن تحليل العادات والتقاليد والقيم والأفكار التي تنتشر في المجتمعات الإنسانية التي تختلف بين بعضها بعضاً باختلاف الخصوصيات الثقافية والحضارية لكل منها.

كما يعدّ عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا الفرنسي كلود ليفي شتراوس Claude Levi-Strauss واحداً من أبرز علماء الميثولوجيا؛ إذ استحوذت الأسطورة في نظريته على موقع أساسي ومهمّ، فهي من حيث المبدأ ذات وظيفة حيوية بالنسبة إلى كل ثقافة، وما من شعب من شعوب العالم إلا وفيه من الأساطير التي تحمل في مضامينها جملة واسعة من القيم والمعايير والمبادئ التي تؤدي وظائف حيوية بالنسبة إلى الحاضر، فقوة الأسطورة لا تأتي فقط من الماضي الذي نشأت فيه، وتناقلها الناس فيما بعد، إنما تكمن فيما تؤديه اليوم من وظائف حيوية بالنسبة إلى الجماعات في حياتها المعاصرة، فشأنها شأن اللغة في تاريخ الشعوب، فإذا كانت اللغة قد نشأت؛ وتطورت عبر مراحل زمنية موغلة في القدم، فإن أهميتها لا تأتي من الماضي الذي تشكلت فيه بقدر ما تأتي قيمتها من الوظائف التي تؤديها في الواقع المعاصر.

ويمضي شتراوس في دراسته الأسطورة معتمداً على نظريته في التحليل البنيوي، فهي أي الأسطورة من حيث المبدأ عنصر أساسي من عناصر الثقافة، ومكون رئيس من مكوناتها، ومن ثمّ فإن أيّ تحليل لثقافة المجتمع يتطلب بالضرورة تحليل بنية الأسطورة فيه التي قد تأتي على شكل عقائد أو فنون أو حكايات شعبية تفسر قدراً كبيراً من أنماط السلوك اليومي التي يعيشها الناس وجملة من العادات والتقاليد التي استقر عليها المجتمع، وهي تعزز بوساطة عملية التنشئة جملة المعايير الضابطة للسلوك الاجتماعي.

وإذا كانت الأسطورة تبدو من حيث الشكل خالية من التماسك المنطقي في تسلسل أحداثها، من حيث الزمن والمكان إلا أنها من حيث النتيجة تعدّ ميداناً لجملة من العمليات المنطقية اللاشعورية التي يمكن استخلاصها من الرؤية الإجمالية لبنيتها العامة على مستوى الثقافة الواحدة وعلى مستوى الثقافات المتعددة، ذلك أن قيمة العناصر المكونة للأسطورة لا يمكن فهمها بمعزل عن سياقها العام، وكل محاولة لفهم هذه العناصر وهي منعزلة عن بعضها يفقد الأسطورة قدراً كبيراً من المعاني التي تحملها، وتنطوي عليها؛ ومن ثمّ تبدو الأسطورة بهذا المعنى خالية من الدلالات والمعاني. وقد دفع هذا النمط من التحليل بليفي شتراوس إلى دراسة أنماط متعددة من الأساطير في الثقافة الواحدة؛ وفي الثقافات المتعددة.

وبالنظر إلى ارتباط الأسطورة التي تعدّ الموضوع الرئيس للميثولوجيا، بمجالات أخرى كالدين والآداب والفنون وعلوم التاريخ والاجتماع والنفس وغيرها...؛ فإن اهتمامات الميثولوجيا ـ بوصفها علماً من العلوم الاجتماعية ـ أخذت تمتد إلى كل تلك الميادين، وعالم الميثولوجيا بهذا المعنى يهتم بكل هذه الميادين والمجالات؛ لأنها تقدم له ما يفيده في فهم الأسطورة وتحليلها ودراستها، فيبدو ارتباطها قوياً بالدين تارة؛ وبالآداب والفنون تارة أخرى؛ وبعلوم التاريخ والاجتماع والنفس تارة ثالثة

تطلق الميثولوجيا على علم الأساطير، وهو من العلوم التي تعمل على عرض مجموعة من القصص التاريخية الأسطورية التي تتعلق بثقافات المجتمعات التي وجدت في العصور القديمة، في الغالب في هذه القصص التي تتناولها الميثولوجيا لا يستطيع الكثير فهم ما تتضمنه أو فهم محتوياتها، حيث تعتبر من الأمور التي يصعب فهمها وشرحها، وذلك لعدم وجود الإدراك المعرفي الكافي لفهم المعنى الحرفي لما ورد بها.

نجدها تتناول تاريخ عصر من العصور، ومجموعة من البشر الذين أتوا في زمن من الزمان، واختفائهم، أو تكون مجموعة من الأجناس البشرية التي تحمل صفات معينة، وتلم بمجموعة من الأفكار والمعتقدات التي ظهرت في زمن من الأزمنة، وتعرض الممارسات الثقافية والعادات المتصلة بفئة من الفئات.

في العديد من الأحيان نجد أنها تمس الواقع وتعكس صورة واقعية للعديد من الأمور التي حدثت بالفعل في المجتمعات القديمة وفي بعض الأحيان نجدها خرافية للغاية ولكن قريبه من واقع نسايره.

في الغالب مفهوم الميثولوجيا يعتمد على الرمزية، ولها ارتباط وثيق ببعض المفاهيم الدينية القديمة، من خلال ذكرها لمجموعة من المسميات أو الكائنات الخارقة للطبيعة، أو كما يطلق عليها الآلهة القديمة، حيث تكمن في داخلها قدرات خارقة للطبيعة، وبعض الطقوس الغرية التي لم يألفها الواقع الإنساني.

في الغالب عند فهم الرموز الواردة بها، وما تشتمل عليه البيئة التي وردت بها في الأساطير نستطيع فهم العديد من المعتقدات الأيدلوجية الخاصة بها، واليت ترتبط بشكل كبير بالديانات القديمة ، التي تقوم الميثولوجيا على تقديسها.

وبالنسبة للفظ الميثولوجي فهو مأخوذ من الأساطير اليونانية القديمة، ويوجد عدة أنواع من الميثولوجيا وهي:

- الميثولوجيا اليونانية.
- الميثولوجيا الجرمانية.
- الميثولوجيا الرومانية.

خصائص علم الميثولوجيا

يوجد مجموعة من الخصائص التي تتميز بها عن باقي الأنواع الأخرى من العلوم، وتعتبر هذه الخصائص من أهم سماتها بمختلف أنواعها وجذورها سواء التاريخية، أو الدينية، أو الاجتماعية ومن اهم تلك الخصائص وأبرزها:

- تتضمن أعماق فلسفية كبيرة للغاية، وتقوم بإرسال مجموعة من الدروس والعبر الأخلاقية أو الاجتماعية التي تكمن داخل الرموز، ويمكن التوصل إلى هذه الأمور من خلال فهم المجازات الميثولوجيا، وتأثير العلاقات التي تتضمنها تلك الأساطير.
- توصف الحياة بتفاصيلها بطريقة غير منطقية، مما يعكس ويلفت النظر إلى عدة أمور منطقية في تفاصيل حياة الإنسان.
- يوجد بها نمط السر العالي، والتي يساعد في الدخول إلى أعماق التفاصيل التي تمت خلال العصور القديمة في الميثولوجيا.

أن الميثولوجيا ترتبط بالعديد من الظواهر المكونة للطبيعة، مثل" الشمس، والماء، والنار،" وتتعلق ببعض الأمور المرتبطة بالإنسان كالشعور، والحكمة، والرغبات.

المحاضرة الخامسة

الأسطورة و التاريخ الحديث

شهد عصر النهضة انطلاقة الدراسات العلمية للأسطورة، ولكن هذه الدراسات اقتصرت حتى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر على أساطير تلك العصور التي يدعوها علماء الغرب العصور الكلاسيكية، ويقصدون بها العصور اليونانية والرومانية. حيث رأى فرانسيس بيكون في الشخصيات الأسطورية مجازات فلسفية وأخرى عقلية وطبيعية، وبالنسبة لتوماس تايلور فرأى أنَّ الأساطير هي روايات مجازية، واعتبر دي برورديه الأساطير المصرية على أنَّها بقايا من عبادة الحيوانات وذلك لشيوع العنصر الحيواني فيها، ورأى كروزر أنَّها -الأساطير- نوع من أنواع التعاليم الدينية المبسطة أو المصورة.

أما علم الأساطير «علم الميثولوجيا أي علم جمع ودراسة وتفسير الأساطير» فلم يظهر ويتأسس بالمعنى العلمي الدقيق في العالم الغربي إلَّا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مثل بقية العلوم الإنسانية، وكانت بداياته على أيدي علماء كانوا يشتغلون في حقول علم الإنسان «الإنثروبولوجيا»، وعلم الأديان، واللسانيات. حيث أخذوا بتقنين ودراسة التراث الأسطوري بأجمعه الذي وصل إلينا من كل العصور الغابرة بمنهج علميٍّ. ولا يبحث علم الأساطير إلَّا في الأساطير وحدها، وبخاصة الأساطير المقارنة، أي أنَّه يقارن بين الأساطير الخاصة بالأجناس المختلفة. ومن أهم فروع علم الأساطير هو «علم الأساطير العام» (بالإنجليزية: general mythology) و«علم الأساطير المقارنة».

ظهرت الدراسات المتعلقة بالأديان خصوصًا والأساطير عمومًا ابتداءً من عام 1724، حيث نشر القسيس «جوزيف فرانسوا لافيتو» كتابًا في باريس عنونه بـ«العادات والتقاليد عند هنود الأمريكتين، ومقارنتها بالعادات والتقاليد في الأزمنة القديمة» قام من خلاله بمقارنة ديانات هنود الأمريكتين بديانته الكاثوليكية. وأعقبتها دراسات أخرى ترتبط بالدين أكثر منها بالأساطير. وفي عام 1871 ظهرت أولى الدراسات المتعلقة بالأساطير ومنها دراسة «إدوارد بيرنت تايلر» الموسومة بـ«الثقافة البدائية»، ثمَّ تلتها دراسة «روبرتسن سمث» في عام 1889 وعنوانها «دين الساميين»، وبعد ذلك، دراسة جيمس فريزر في كتابه «الغصن الذهبي» في عام 1890

صاحب تطور الدراسات المقارنة وخاصة في التاريخ وعلم اللغة المقارنة «الفيلولوجيا» تقدمًا ثابتًا في دراسة الأسطورة. إذ بدأت الدراسة العلمية للأسطورة على يد «كارل أوتفريد مولر»، إلَّا أنَّ دراستها أصبحت شائعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من خلال أعمال «ماكس مولر»الذي صنَّف الأساطير، ودرس الأديان دراسة مقارنة. ثمَّ جاء الأنثروبولوجي «إدوارد تايلور» الذي صنَّف الأساطير وبوَّبها إلى أنواع أو أبواب متميّزة، وقسَّمها عمومًا إلى بابين كبيرين، وهما: الأساطير النقيَّة، والأساطير غير النقيَّة. حيث الأولى تنبثق من المخيلة والثانية تجمع بين الحقيقة والخيال.

الميثولوجيا «mythology» هي فرع من فروع المعرفة وأحد العلوم الاجتماعية والإنسانية يُعنى بدراسة وتفسير الأساطير بوصفها ظاهرة ثقافية اجتماعية شديدة التعقيد، ويتكون هذا المصطلح من مقطعين: الأول هو مِث «myth» المشتق من الجذر اليوناني «muthas» ويعني قصة أو «الكلمة أو الكلام» أو «حكاية تقليدية عن الآلهة والأبطال»، أو من الجذر «Mythos» ويعني قصة غير واقعية، والثاني هو «Logy» ويعني العلم أو الدراسة العلمية، وهو مشتق من الجذر «لوغوس» الذي كان يشير في الفلسفة إلى المبدأ العقلي، وتستخدم أيضًا بكثرة في العصر الحديث للدلالة على العلوم المختلفة، كأن نقول سوسيولوجيا أو بيولوجيا. وبذلك تكون الميثولوجيا، في هذا السياق، الدراسة العلمية للأساطير وفحصها وفق القواعد العلمية المتبعة.

ويرى مسعود أنَّ معنى ميثولوجيا هو معالجة الأساطير، أو علم الخرافات، وأخبار الآلهة، والأبطال في جاهلية التاريخ، وكل ما له صلة بالوثنية، وطقوسها، وأسرارها، ورموزها، ومظاهر كل منها. بينما

يذهب الحوت إلى أنَّ الميثولوجيا لها عدة معانٍ، فهي علم يبحث في أساطير التكوين والآلهة والأبطال وتطلق على هذه الأساطير نفسها. واصطلاحًا، تعني القصة الخرافية أو مجموعة أساطير تتعلق بالمعتقدات الخرافية أو الدينية لقطر من الأقطار أو شعب من الشعوب أو على تلك الناحية من العلوم التي تعنى بالخرافات. لذلك، يمكن أن نقول الميثولوجيا السورية أو الميثولوجيا الإغريقية. ويرى حنا عبود أن لهذه اللفظة معنيان يشير الأول إلى مجموعة من الأساطير تشكل معا نظاما ميثولوجيا. فنتحدث عن «الميثولوجيا المصرية» أو «الميثولوجيا الهندية» أو اليونانية... الخ. وبهذا المعنى يمكن أن يصف المرء نظام أساطير استخدم من قبل مجتمع خاص في زمن خاص في التاريخ البشري. ويمكن أيضا أن تكون مجموعة ميثولوجيات بطرق أخرى. فمثلا يمكن ضم مجموعة منها جغرافيا فيمكن الحديث عن «الميثولوجيا الأوقيانوسية» و«الميثولوجيا الشرقية» و«الميثولوجيا الأفريقية». وهناك معنى آخر لمصطلح الميثولوجيا وهو الدراسة الأكاديمية لأساطير وأنظمة أساطير بشكل عام. أما إرنست كاسرر فإنَّه يرى بأنَّ مصطلح «الميثولوجيا» يقصد به «علم أشكال التصور الديني».

اِستُخدِم مصطلح «ميثولوجيا» لأوَّل مرة في اللغة الإنجليزية في القرن الخامس عشر الميلادي بمعنى «تفسير الأساطير». أمَّا المعنى الأعم لهذه الكلمة، وهو مجموعة أساطير، فلم يُستخدم قبل العام 1781م. أما حديثًا، فتعني «علم الأساطير» و«مجموعة أساطير شعب ما».وفي اللغة العربية، عُرِّب مصطلح «mythology» إلى أكثر من مصطلح لم تخرج في معانيها عمَّا ورد في السياقات الغربية. فعُرِّب إلى «علم الأساطير» و«أسطوريَّات» للدلالة على الدراسة النظامية للأساطير وعملية جمعها، وأمَّا «الأساطير» و«أساطير الأولين» و«أساطير الأقدمين» فللدلالة على مجموعة أساطير شعب ما، أو على مجموعة الأساطير التي تختص بالتراث الديني فقط. وهناك من آثر نقله حرفيًّا «الميثولوجيا» معللا ذلك بأنَّ هذه الكلمة يونانية الأصل هي كلمة جامعة للخرافة والميثة والأسطورة معًا لذلك، هناك ترادف بين مصطلحي «الأساطير والميثولوجيا» في الاستخدام الشائع بين المختصين وغيرهم في سياق التعبير عن مجموع أساطير شعب ما.

كان أفلاطون أول من استعمل تعبير «موثولوجيا» للدلالة على فن رواية القصص، وبشكل خاص ذلك النوع الذي ندعوه اليوم بالأساطير، ومنه جاء تعبير «ميثولوجيا» المستخدم في اللغات الأوربية الحديثة، أما في لغات الشرق القديم فلا نعثر على مصطلح خاص ميز به أهل تلك الحضارات الحكاية الأسطورية عن غيرها. ومن المؤكد أن «فن رواية القصص» الذي نسبه أفلاطون للميثولوجيا ليس هو «علم دراسة الأساطير» فالأول يكاد يدخل في فن القصة والرواية، أما الثاني فهو علم معاصر لا يختلف عن بقية العلوم الإنسانية، ويعنى بدراسة شريحة اسمها «الأسطورة».لكن هناك من يرى أنَّ أفلاطون هو أول يوناني استخدم لفظة «ميثوس» وليس لفظة «ميثولوجيا» التي تعني علم الأساطير.

- **ميثوغرافيا**

يُعرَّف، مصطلح «ميثوغرافيا»، بأنه تجميع أو وصف الأساطير بشكل عام، ويُمكن استخدام المصطلح للإشارة إلى المختارات الأدبية الخاصة بالأساطير. وبشكل غير سليم، يمكن إطلاق المصطلح على دراسات الأساطير عُمومًا. وأما الشخص الذي يُسجِّل ويروي ويُعلِّق على الأساطير والخُرافات فيُدعى بـ«الأساطيريّ» (بالإنجليزية: mythographer). وهناك، أيضًا، المتخصص بدراسة الأساطير أي العالِم بالأساطير (بالإنجليزية: mythologist).

✓ النشأة والبواعث

يرى البعض من مؤرخي الديانات أنَّ الأساطير كانت روايات خرافية تطورت من أجل تفسير طبيعة الكون ومصير الإنسان وأصول العادات والعقائد، والأعمال الجارية في حياتهم، وأسماء الأماكن المقدسة والأفراد البارزين. ويرى آخرون أنَّها قصة أنشأها الإنسان الأول لتصور ما وعته ذاكرة شعب أو نسجه خيال شاعر حول حادث حقيقي كان له من الأهمية ما جعله يعيش في أعماق ذلك الشعب صحيحًا أو محرفًا تمتزج به تفاصيل خرافية. وهي قصة خرافية عادة ما تكون من أصل شعبي، تصور كائنات تجسد

في شكل رمزي قوى الطبيعة، أو بعضًا من جوانب عبقرية البشر. أو هي قصة حقيقية حدثت في الأزمنة البدائية، وتستخدم في الوقت نفسه كنموذج للسلوك البشري.

وهناك أربع مدارس رئيسية اهتمَّت بالبحث في موضوع نشأة الأساطير وبواعث نشوئها، وهي:

❖ المدرسة التأريخية

ترى أنَّ الأساطير التي وصلت إلينا ليست في أُصولها إلَّا تأريخَ البشريَّة الأُولى، حيث نُسيت أو أُغفلت ملامحه الدقيقة وأضفى الخيال الإنساني عليه جوَّاً فضفاضًا، وتأريخ الآلهة ما هو إلَّا تأريخ لعصر الأبطال، حين كان الإنسان يُعجب بالقوَّة والجبروت.. وهذا الرأي يُفسر نشأة الأساطير على أساس مرتبط بالتأريخ الملحمي للشعوب، بوصفه تعبيرًا رمزياً عن الأبنية الاجتماعية والحضارية المعبر عن الفكر الجماعي، وبالأساليب البدائية العتيقة. ومن أصحاب هذا التوجه شيلينغ ومالينوفسكي.

❖ المدرسة الطبيعية

تُرجع هذه المدرسة الأساطير إلى منشأ طبيعي، يتصل بالظواهر الكونية مثل المطر، والزرع، والبرق والرعد، والرياح وغيرها. وقد ربط الإنسان القديم كل هذه الظواهر بقوى غيبية بعيدة تسيطر عليها وتتحكم فيها، وتتصارع فيما بينها، بحيث ينتهي الصراع بخلق حالة من التوازن بين الخير والشر، متوخيًا من ذلك كله السيطرة على القوى الطبيعية بالأساليب العلمية المتمثلة بالطقوس والتعاويذ وغيرهما لتحقيق أهداف علمية ونفعية محددة، وكان جيمس فريزر، وأندرولانج، ولورنس جوم، من دعاة هذا الرأي.

❖ المدرسة التعبيرية

خالفت هذه المدرسة آراء من ربط نشأة الأسطورة بالظواهر الكونية، وأنكرت أن يكون الإنسان البدائي قد انشغل بالكون ونظامه إلى حدّ التأمّل والتعجب والتساؤل، وترى أن أبسط تعبير عن نظام الكون، وعن المبادى الأساسية للنظام الأخلاقي في الحياة يتطلب استخدام لغة تجريدية، وهو ما نادى به لورد راجلان.

❖ المدرسة النفسية

ترى مدرسة التحليل النفسي أنَّ الأسطورة صنو الحلم، إذ يمكن أن تكون بمثابة أعراض تدل على وجود حقائق أخرى، فتبدو من هذا رموزا لظواهر نفسية لا شعورية تمثل قوى تتحكم في مسيرة الفرد، وسلوكه الاجتماعي، في إشارتها إلى حاجات حيوية تكمن فيما سماه فرويد عقدة أوديب. وفيما جعله كارل يونغ لقاءً ثقافيًا نفسيًا على صعيد اللاوعي الجمعي. أما إيرك فروم فيوافق رأي فرويد في العلاقة بين الأسطورة والحلم، ولكنه يخالفه في النظر إليها على كونهما نتاج العقل اللاشعوري، إذ يرى أن العقل في حالة الحلم إنما يعمل ويفكر، ولكن بطريقة أخرى، ولغة أخرى، وهي لغة الرمز، وما علينا إلا أن نفهم مفرادات تلك اللغة لينفتح أمامنا عالم مملوء بمعان غنية.

✓ خصائص ومميزات النص الأسطوري

يرى فراس السواح أنَّ هُناك ثمانية خصائص تُميز النص الأسطوري عن غيره من الأجناس الأدبية، وهي كالتالي:

1- من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة، وتحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات وما إليها. وغالباً ما تجري صياغتها في قالب شعري يساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية وتداولها شفاهاً، كما يزودها بسلطان على العواطف والقلوب لا يتمتع به النص النثري.

2- يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن وتتناقله الأجيال مادام محافظاً على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة. فالأسطورة السومرية «هبوط إنانا إلى العالم الأسفل» التي دُوّنت كتابة خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد قد استمرت في صيغتها الأكادية المطابقة تقريباً للأصل السومري حتى أواسط الألفية الأولى قبل الميلاد. غير أن خصيصة الثبات هذه لا تعني الجمود أو التحجر لأن الفكر الأسطوري يتابع على الدوام خلق أساطير جديدة ولا يجد غضاضة في التخلي عن تلك الأساطير التي فقدت طاقتها الإيحائية أو في تعديلها.

3- يُعرف للأسطورة مؤلِّف معين لأنها ليست نتاج خيال فردي، بل ظاهرة جمعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة وعواطفها وتأملاتها. ولا تمنع هذه الخصيصة الجمعية للأسطورة من خضوعها لتأثير شخصيات روحية متفوقة تطبع أساطير الجماعة بطابعها وتحدِث انعطافاً دينياً جذرياً في بعض الأحيان.

4 - يلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية في الأسطورة؛ فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكمِّلاً لا رئيسياً.

5 - تتميز الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة بالجدية والشمولية، وذلك مثل التكوين والأصول، الموت والعالم الآخر، معنى الحياة وسر الوجود، وما إلى ذلك من مسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد. إن همَّ الأسطورة والفلسفة واحد، لكنهما تختلفان في طريقة التناول والتعبير. فبينما تلجأ الفلسفة إلى المحاكمة العقلية وتستخدم المفاهيم الذهنية كأدوات لها فإن الأسطورة تلجأ إلى الخيال والعاطفة والترميز وتستخدم الصور الحية المتحركة.

6- تجري أحداث الأسطورة في زمن مقدس هو غير الزمن الحالي. ومع ذلك، فإن مضامينها، بالنسبة للمؤمن، أكثر صدقاً وحقيقية من مضامين الروايات التاريخية. فقد يشكك هذا المؤمن بأية رواية تاريخية، ويعطي لنفسه الحق في تصديقها أو تكذيبها، ولكن الشك لا يتطرق إلى نفسه، إذا كان بابلياً، بأن الإله مردوخ قد خلق الكون من أشلاء تنين العماء البدئي، وبأن الإله بعل قد وطَّد نظام العالم بعدما صرع الإله يم وروض المياه الأولى، إذا كان كنعانياً. ويستتبع لاتاريخية الحدث الأسطوري أن رسالته غير زمنية وغير مرتبطة بفترة ما؛ إنها رسالة سرمدية خالدة تنطق من وراء تقلبات الزمن الإنساني. إن عدم تداخل الزمن الأسطوري بالزمن الحالي يجعل من الحدث الأسطوري حدثاً ماثلاً أبداً. فالأسطورة لا تقص عما جرى في الماضي وانتهى، بل عن أمر ماثل أبداً لا يتحول إلى ماضٍ. ففعل الخلق الذي تم في الأزمنة المقدسة يتجدد في كل عام ويجدد معه الكون وحياة الإنسان؛ وإله الخصب الذي قُتِل ثم بعث إلى الحياة موجود على الدوام في دورة الطبيعة وتتابع الفصول؛ وصراع الإله بعل مع الحية لوتان ذات الرؤوس السبعة هو صراع دائم بين قوى الخير والحياة وقوى الشر والموت؛ وخلق الإنسان من تربة الأرض ممزوجةً بدم إله قتيل هو تأسيس لفكرة الطبيعة المزدوجة للإنسان وتكوينه من عنصر مادي وآخر روحاني. وحتى عندما تتحدث الأسطورة عن حدث محدد في تاريخ الناس فإن مرامي هذا الحدث تكون خارج الزمن وتتخذ صفة الحضور الدائم. ونموذج هذا النوع من الأساطير أسطورة الطوفان الرافدية. فمع أن السومريين اتخذوا من حادثة الطوفان، التي أبلغت عنها الأسطورة، نقطة في التاريخ يؤرخون بها لما حدث قبلها وما حدث بعدها، إلا أن فحوى الأسطورة لم يكن تاريخياً بالنسبة لهم، لأن الطوفان الذي دمر الأرض من حولهم مرة هو نذير دائم بسطوة القدر وتحذير من الغضب الإلهي البعيد عن أفهام البشر ومن الاطمئنان إلى استمرارية الشرط الإنساني وثبات الأحوال.

7- ترتبط الأسطورة بنظام ديني معين وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه. وهي تفقد كل مقوماتها كأسطورة إذا انهار هذا النظام الديني، وتتحول إلى حكاية دنيوية تنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الشبيهة بالأسطورة.

8- تتمتع الأسطورة بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم. إن السطوة التي تمتعت بها الأسطورة في الماضي لا تدانيها سوى سطوة العلم في العصر الحديث. فنحن اليوم نؤمن بوجود الجراثيم وبقدرتها على تسبيب المرض، وبأن المادة مؤلفة من جزيئات وذرات ذات تركيب معين، وبأن الكون مؤلف من مليارات المجرات، إلخ، وذلك لأن العلم قد قال لنا ذلك. وفي الماضي آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها له الأسطورة، مثلما نؤمن اليوم، بدون نقاش، بما ينقله لنا العلم والعلماء. وكان الكفر بمضامينها كفراً بكل القيم التي تشد الفرد إلى جماعته وثقافته، وفقداناً للتوجُّه السليم في الحياة.

المحاضرة السادسة

الأسطورة والفلسفة

تتداخل العلاقة بين الأسطورة والعلم مع العلاقة بين الأسطورة والفلسفة؛ لذا ربما كان بوسعنا هنا استعراض آراء الكثير من المنظرين الذين أشرنا إليهم في الفصل السابق، غير أن هناك نطاقًا أوسع من الرؤى والمواقف حول العلاقة بين الأسطورة والفلسفة: من قبيل أن الأسطورة جزء من الفلسفة، وأن الأسطورة «هي» الفلسفة، وأن الفلسفة هي الأسطورة، وأن الأسطورة تنبثق من الفلسفة، وأن الفلسفة تنبثق من الأسطورة، وأن الأسطورة والفلسفة مستقلتان إحداهما عن الأخرى، لكنهما تؤديان الوظيفة نفسها، وأن الأسطورة والفلسفة مستقلتان إحداهما عن الأخرى، وتؤديان وظائف مختلفة.

يذكر **بول رادين** أنه بينما أدرج تايلور وفريزر الأسطورة والعلم تحت الفلسفة، وضع ليفي-بريل الأسطورة، كرد فعل لهما، في مقابل العلم والفلسفة معًا. ويرى ليفي-بريل أن التوحد البدائي مع العالم، مثلما تدلل الأسطورة على ذلك، هو النقيض للانفصال عن العالم الذي ينادي به كل من العلم والفلسفة.

من ثم، جاء رد فعل أكثر حدة على رؤية ليفي-بريل من عالم الأنثروبولوجيا بولندي المولد، بول رادين (١٨٨٣–١٩٥٩)، الذي جاء إلى أمريكا رضيعًا. ويفسِّر عنوان كتابه الرئيس «الرجل البدائي فيلسوفًا» نفسه. فعلى الرغم من عدم ذكر رادين لتايلور في كتابه قط، يحيي رادين رؤية تايلور فيما يحجمها ويوسع نطاقها في ذات الوقت. ويفترض رادين جدلًا أن «معظم» البدائيين لا يمتون إلى الفلسفة بصلة، ويشير إلى أن معظم الأشخاص في أي ثقافة على هذه الحال أيضًا. ويفرّق رادين بين الشخص العادي، «رجل الأفعال»، والشخص الاستثنائي، «المفكر» بقوله:

> يشعر الشخص العادي [رجل الأفعال] بالرضا لوجود العالم، ولتتابع الأحداث فيه. لكن لتفسيرات هذه الأحداث أهمية ثانوية. فهو مستعد لتقبل التفسير الأول الذي يأتيه عَرَضًا، ولا يكترث البتة بأية تفسيرات عميقة، بل ينزع لتفسير في مقابل تفسير آخر. ويفضل هذا الشخص التفسير الذي يؤكد فيه تأكيدًا خاصًّا على العلاقة المباشرة بين تسلسل الأحداث. ويتميز الإيقاع العقلي له — إذا جاز لي استخدام هذا التعبير — بالحاجة إلى التكرار اللانهائي لنفس الحدث أو — في أفضل الأحوال — بتكرار الأحداث التي تقع جميعها على المستوى العام نفسه ... في المقابل، يعتبر الإيقاع العقلي للمفكر مختلفًا تمامًا؛ فهو يرى أن افتراض وجود علاقة مباشرة بين الأحداث لا يكفي؛ ولذا يُصر على تقديم وصف للتقدم التدريجي والتطور من وضع إلى أوضاع متعددة، ومن البسيط إلى المعقد، أو يصر على افتراض وجود علاقة بين السبب والتأثير.

يوجد «النمطان المزاجيان» في جميع الثقافات وبنفس النسبة. وإذا كان ليفي-بريل مخطئًا إذن في إنكار أن أي بدائي يُعد مفكرًا، فسيُعد تايلور بالمثل مخطئًا في افتراض أن جميع البدائيين مفكرون. غير أن رادين يعتقد أن هؤلاء البدائيين المفكرين يمتلكون مهارات فلسفية فائقة أروع من المهارات التي يسلم تايلور بوجودها عند صانعي الأساطير أنفسهم، ويطلق عليهم «فلاسفة بدائيين». ويرى رادين أن التخمينات البدائية — الموجودة في صورتها الكاملة في الأساطير — تتجاوز مجرد تقديم تفسير للأحداث في العالم المادي، مثلما، للأسف، يُقال عن أسطورة أدونيس. وتتعامل الأساطير مع جميع أنواع موضوعات ما وراء الطبيعة، مثل المكونات النهائية للحقيقة. وعلى النقيض من تايلور، يستطيع البدائيون ممارسة النقد بدقة:

من غير الإنصاف على الإطلاق القول بأن الأشخاص البدائيين يفتقرون إلى القدرة على التفكير المجرد أو إلى القدرة على ترتيب هذه الأفكار بصورة منهجية، أو، أخيرًا، القدرة على جعلهم وبيئتهم بالكامل عرضة للنقد الموضوعي.

إن القدرة على النقد هي الصفة الأساسية لعملية التفكير، وذلك على الأرجح في رأي رادين، وكذلك كارل بوبر وروبين هورتون بكل تأكيد.

يرى **إرنست كاسيرر** أن من ردود الأفعال الأقل استهانةً بليفي-بريل ما بدر عن الفيلسوف ألماني المولد، إرنست كاسيرر (١٨٧٤–١٩٤٥)، الذي ينتهج نهج ليفي-بريل بالكامل في رؤية أن التفكير الخرافي، أو «الصانع للأسطورة»، هو تفكير بدائي، ومحمل بالمشاعر، وهو أيضًا جزء من الدين، وإسقاط للتوحد الروحي على العالم. في المقابل، يزعم كاسيرر اختلافه الجذري مع ليفي-بريل في التأكيد على أن التفكير الخرافي يحظى بمنطق فريد من نوعه. وفي حقيقة الأمر، يطرح ليفي-بريل القول نفسه بل ويبتكر مصطلح «قبل منطقي» لتجنب وسم التفكير الخرافي بصفات مثل «غير منطقي» أو «لا منطقي». ويزعم كاسيرر أيضًا اختلافه الجذري مع ليفي-بريل في التأكيد على استقلالية الأسطورة كأحد أشكال المعرفة، حيث تشكل اللغة، والفن، والعلم الأشكال الرئيسة الأخرى لها:

على الرغم من أن تبعية الأسطورة لنظام عام من الأشكال الرمزية يبدو أمرًا حتميًّا، فإن ذلك يشكل خطرًا محققًا ... فقد يؤدي [هذا الأمر] إلى القضاء على الصورة الجوهرية [أي المتميزة] للأسطورة. ولم تكفَّ المحاولات في حقيقة الأمر عن تفسير الأسطورة من خلال اختزالها إلى شكل آخر من الحياة الثقافية، سواءٌ أكان ذلك معرفة [أي علمًا] أم فنًّا أم لغة.

يرى كاسيرر في الوقت نفسه، على نحو لا يختلف عن ليفي-بريل، أن الأسطورة لا تتوافق مع العلم، وأن العلم يأتي خَلَفًا لها: «يصل العلم إلى صورته الخاصة به، فقط من خلال رفض جميع المكونات الخرافية ومكونات ما وراء الطبيعة» (كاسيرر، «فلسفة الأشكال الرمزية»، المجلد الثاني، صxvii). ويعتقد كل من كاسيرر وليفي-بريل أن الأسطورة بدائية بصورة استثنائية، وأن العلم حديث بصورة استثنائية أيضًا. في المقابل، لا يزال توصيف كاسيرر للأسطورة كأحد أشكال «المعرفة» — كأحد أنشطة الإنسانية في صناعة الرموز ورسم معالم العالم — يضع الأسطورة في نفس مرتبة العلم، التي لم يكن ليفي-بريل ليضعها فيها.
بناءً عليه، صار كاسيرر ينظر إلى الأسطورة على أنها بدائية وكذلك حديثة. وعندما فر إلى أمريكا هربًا من هتلر في ألمانيا، صب جام اهتمامه على الأساطير السياسية الحديثة، خاصةً أساطير النازية. وتكافئ الأسطورة في هذا السياق الأيديولوجية. فبعد أن كان مهتمًا بالموضوعات الأثيرية والمعرفية، تحول إلى الموضوعات الاجتماعية العلمية البسيطة، مثل: كيف تترسخ الأساطير السياسية وتستمر؟ وبعد أن كان يزدري اهتمام ليفي-بريل المزعوم بالجانب اللاعقلاني في الأسطورة، صار يؤيد وجوده:

في جميع اللحظات المهمة في حياة الإنسان الاجتماعية، لم تعد القوى العقلانية التي تقاوم صعود المفاهيم الخرافية القديمة واثقة من نفسها. وفي هذه اللحظات، حل زمن الأسطورة مرة أخرى.

ربط كاسيرر بين الأسطورة والسحر، والسحر والجهد المضني للتحكم في العالم، ليطبّق تفسير الأساطير «البدائية» التي طرحها برونيسلاف مالينوفسكي على الأساطير «الحديثة»:

إن هذا التفسير [الذي طرحه مالينوفسكي] لدور السحر والميثولوجيا في المجتمع البدائي ينطبق بالتساوي على المراحل المتطورة في الحياة السياسية للإنسان. ففي المواقف الصعبة، يلجأ الإنسان دائمًا إلى الوسائل الصعبة.

يختلف كاسيرر عن مالينوفسكي في جعل العالم الذي لا يمكن السيطرة عليه هو العالم الاجتماعي وليس العالم المادي، وفي إضفاء قوة سحرية على الأسطورة نفسها، والأدهى من ذلك، في النظر إلى الأسطورة

كمجال حديث. ولكن هناك مشكلة تخفى على البعض: وهي أن الأساطير الحديثة تمثل إحياء رجعيًّا للبدائية.

وبينما حلل كاسيرر الأسطورة سابقًا باعتبارها شبيهة بالفلسفة، فإنه الآن يفصل بين الأسطورة والفلسفة. فهو يرى أن الأسطورة ليست سوى صورة من صور المعرفة، لها منطقها المتميز الذي يمكن استخلاصه. ولم يبقَ سوى الدور المهمَّش للفلسفة المتمثل في دحض الأساطير السياسية:

لا تستطيع الفلسفة في حدود قدرتها تقويض الأساطير السياسية؛ إذ إن الأسطورة حصينة إلى حد ما؛ فهي لا تتأثر بالحجج العقلانية، ولا يمكن دحضها من خلال القياس المنطقي. على النقيض من ذلك، تستطيع الفلسفة أن تولينا معروفًا؛ فتستطيع أن تجعلنا نفهم الخصم ... فعندما سمعنا للمرة الأولى عن الأساطير السياسية، وجدناها منافية للعقل ومتناقضة، مدهشة ومثيرة للضحك، حتى أصبح من الصعوبة بمكان إقناعنا بتقبلها بصورة جدية. وحاليًّا، صار من الواضح للكافة أن ذلك كان خطأ كبيرًا ... فيجب أن ندرس الأصل والبنية والوسائل والأساليب الخاصة بالأساطير السياسية دراسة جادة، ويجب أن نرى الخصم وجهًا لوجه حتى نعرف كيف نحاربه.

من الصعوبة بمكان إدراك كيف تصبح دراسة الأساطير السياسية على هذا النحو المقترح مهمة الفلسفة، وليس مهمة علم الاجتماع. فالآن، لا تُعد الأسطورة قبل منطقية فحسب، بل وغير منطقية على الإطلاق، وهو موقف أكثر تطرفًا من ذلك الذي ينتقد كاسيرر ليفي-بريل عليه!

يؤكد **آل فرانكفورت** ورود تطبيق نظريات ليفي-بريل وكاسيرر بالكامل على الفلسفة في كتاب نُشر عام ١٩٤٦ عنوانه «المغامرة الفكرية للقدماء: مقال حول الفكر التأملي في الشرق الأدنى القديم»، وقد ألفه مجموعة من المتخصصين في الشرق الأدنى. عند إعادة نشر الكتاب في نسخة ورقية الغلاف في عام ١٩٤٩، جُعل العنوان والعنوان الفرعي في صورة عنوان فرعي من شقين، فيما اتخذ الكتاب عنوانًا جديدًا رئيسًا دالًّا على محتواه، هو «قبل الفلسفة». ووفقًا للزوجين هنري وإتش إيه فرانكفورت، اللذين يطرحان النظرية، عاشت شعوب الشرق الأدنى القديم في مرحلة بدائية من الثقافة عُرفت عن حق بأنها «قبل فلسفية». وتعود عملية تصنيف القديم تحت البدائي إلى تايلور وفريزر. ويرى آل فرانكفورت أن الحداثيين يفكرون «فلسفيًّا»، وهو ما يعني التفكير بصورة مجردة ونقدية وغير عاطفية. فمجال الفلسفة هو مجال واحد فحسب يوظف التفكير الفلسفي، أما نموذج التفكير «الفلسفي» الحقيقي فيمثله العلم. ويستخدم تايلور وليفي-بريل وآخرون مصطلح «فلسفة» استخدامًا واسع النطاق، فيما يترادف مع مصطلح «فكر»، وبالمثل يعتبرون العلم أنقى تجلياتها. وعلى الطرف النقيض من الحداثيين، حسبما يؤكد آل فرانكفورت، يفكر البدائيون تفكيرًا «صانعًا للأسطورة»، وهو ما يعني التفكير بصورة مادية، وبطريقة غير نقدية، وعاطفية. ولا تعد الميثولوجيا سوى تعبير واحد عن التفكير الصانع للأسطورة، إن لم يكن التعبير الأكثر ثراءً على الإطلاق بين صور التعبير الأخرى.

في حقيقة الأمر، تعتبر طرق التفكير الفلسفية والصانعة للأساطير أكثر من مجرد أساليب مختلفة لتصور العالم؛ إذ تعتبر أساليب مختلفة لإدراك العالم، مثلما يراها ليفي-بريل. ويتمثل «الفرق الرئيس» في أن العالم الخارجي من منظور الحداثيين يُعبر عنه بالضمير «هو» — للإشارة إلى غير العاقل — بينما هو «أنت» من منظور البدائيين؛ وقد أُخذ هذان المصطلحان عن الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر. وتعتبر العلاقة بين «أنا وهو» علاقة انفصالية وفكرية، أما العلاقة بين «أنا وأنت» فعلاقة تشاركية وعاطفية، إذا نحينا العنوان الرئيس الأصلي المحيِّر لكتاب آل فرانكفورت جانبًا؛ إذن فالعلاقة المثالية بين «أنا وأنت» هي علاقة حب.

إذا قلنا إن البدائيين يتعاملون مع العالم باعتباره «أنت» وليس «هو»، فسيعني ذلك أنهم يتعاملون معه كشخص وليس كشيء. وبذلك، لا يُعزى هطول الأمطار بعد فترة من الجفاف إلى التغيرات الجوية، بل

فلنقل إلى إلحاق إله المطر الهزيمة بإله غريم، كما يرد في الأسطورة. وإذا جرى فهم العالم باعتباره «أنت»، سيعني ذلك طمس حقائق يومية تمييزية في ثنائية «أنا وهو». فلا يستطيع البدائيون التفرقة بين الذاتي والموضوعي؛ فهم يرون الشمس تشرق وتغرب، ولا يرون الأرض تدور حولها. يرى البدائيون الألوان، ولا يرون الأطوال الموجية. لا يستطيعون التفرقة بين المظهر والمخبر؛ فالعصا «تبدو» منثنية في الماء وليست هكذا تكون. والأحلام حقيقية؛ نظرًا لأنهم رأوها كأنها حقيقية. ولا يستطيعون التمييز بين الرمز والشيء المرموز له؛ فالاسم يتطابق مع صاحبه. وإعادة تمثيل الأسطورة تعني تكرارها، كما سنرى في مناقشةٍ لنظرية فريزر في الفصل الرابع.

يرى آل فرانكفورت أن المصريين وسكان ما بين النهرين القدماء عاشوا في عالم استثنائي صانع للأساطير. وبدأ الانتقال من التفكير الصانع للأساطير إلى التفكير الفلسفي على يد بني إسرائيل، الذين دمجوا العديد من الآلهة في إله واحد، ووضعوا هذا الإله خارج نطاق الطبيعة. وبذلك مهَّد بنو إسرائيل الطريق لليونانيين، الذين حوَّلوا هذا الإله الشخص إلى قوة واحدة أو أكثر غير شخصية، تشكل أساس الطبيعة، أو مظهر الأشياء. ولم تنتقل الطبيعة في النهاية إلى مرحلة «خلع الثوب الخرافي»، حتى تحوَّل الخيال السائد في حقبة ما قبل سقراط إلى العلم التجريبي.

هناك مشكلات عديدة مع طرح آل فرانكفورت: أولًا: يعبر صنع الأسطورة أحيانًا فيما يبدو عن المذهب الروحاني الذي أتى به تايلور، والذي يقول بأن البدائيين يمتلكون العقلية نفسها التي يمتلكها الحداثيون. ثانيًا: لا تتضمن ثنائية «أنا وأنت» لبوبر التعامل مع «الشيء» كشخص، بل تشمل فقط التعامل مع «الشخص» كشخص. ثالثًا: يمكن التعامل مع أية ظاهرة بكل تأكيد باعتبارها «هو» و«أنت»: تدبر مثال التعامل مع حيوان أليف والتعامل مع مريض. رابعًا: لا تستطيع أية ثقافة إشراك الطبيعة فحسب في الأحداث باعتبارها «أنت»، بل تفصلها بصورة كافية تسمح لها بإنبات المحاصيل على سبيل المثال. خامسًا: إن توصيف ثقافات الشرق الأدنى القديمة بأنها صانعة للأساطير من جميع الجوانب، ووصف إسرائيل بأنها غير صانعة للأساطير إلى حد كبير، ووسم اليونان بأنها علمية بالكامل؛ كل ذلك يُعد اختزالًا مخزيًا، كما تبين بوضوح آراء إف إم كورنفورد حول علم اليونانيين.

على كل حال، يجب الثناء على آل فرانكفورت لمحاولتهما تطبيق نظرية ليفي-بريل المجردة على حالات محددة. واتباعًا لنهج ليفي-بريل وكاسيرر، يرى آل فرانكفورت بإيمان عميق أن الأساطير، بينما هي قصص في حد ذاتها، تفترض افتراضًا مسبقًا وجود عقلية متميزة. وللمفارقة، يتطابق أشد نقد يوجهه آل فرانكفورت إلى ليفي-بريل مع النقد الذي يوجهه كاسيرر إليه، وإن كان مثله في غير مكانه؛ فليفي-بريل نفسه يصر على أن التفكير البدائي متميز، مع كونه منطقيًّا. أما عن تطبيق نظرية آل فرانكفورت على أسطورة أدونيس، فإنها ستكون كمثل تطبيق نظرية ليفي–بريل عليها، من حيث التركيز على توحد أدونيس عاطفيًّا مع العالم، وما ترتب على ذلك من عدم قدرة على النظر إلى العالم بصورة سليمة.

و يرى كل **رودولف بولتمان وهانز يوناس** من قدر ما يتميز كاسيرر خاصةً في المراحل المبكرة من أعماله بأنه فلسفي — شأنه شأن منهج تناوله للأسطورة — فإنه لا يرى أبدًا أن الأسطورة «تعني» الفلسفة. ولا يطرح ذلك من المنظرين سوى عالم اللاهوت الألماني رودولف بولتمان (١٨٨٤–١٩٧٦)، والفيلسوف ألماني المولد هانز يوناس (١٩٠٣–١٩٩٣)، الذي استقر بصورة نهائية في الولايات المتحدة. وكلاهما لا يستقي فحسب معنى الأسطورة من الفلسفة — من الفيلسوف الوجودي مارتن هيدجر في مراحله المبكرة — بل يضيق أيضًا دائرة الدراسة حول مسألة المعنى. ولا يهتم أي منهما بأصل أو وظيفة الأسطورة؛ ولا تعتبر الأسطورة في منظورهما جزءًا من أي نشاط. وشأنهما شأن بعض علماء الأنثروبولوجيا النظريين، يتعامل كلاهما مع الأسطورة كنص مستقل، لكنهما على عكس تايلور، لا يتأملان حتى ولو نظريًّا طريقة نشوء الأسطورة أو طريقة عملها.

لا مراء أن بولتمان ويوناس يترجمان الأسطورة إلى مصطلحات وجودية بغرض جعل معناها مستساغًا للحداثيين، لكنهما لا يبحثان في سبب الحاجة إلى الأسطورة، خاصةً عندما تتطابق رسالة الأسطورة مع رسالة الفلسفة. على سبيل المثال، لا يقترح أي منهما أن الأسطورة، مثل الأدب بالنسبة إلى أرسطو، تمثل طريقة أسهل لتوصيل الحقائق المجردة إلى الآخرين. ونظرًا لأن نماذج الأساطير التي يبحثانها — العهد الجديد عند بولتمان، والغنوصية عند يوناس — نماذج دينية وليست نماذج فلسفية صرفة، فإننا سننظر بمزيد من التفصيل في نظريتيهم في الفصل التالي حول الأسطورة والدين.

ومن منظور **ألبير كامو** ان نأخذ أوضح أمثلة اختزال الأسطورة إلى فلسفة يوجد في التفسير الشهير للأسطورة اليونانية سيسيفوس (وتُعرف أيضًا بسيزيف) لألبير كامو (١٩١٣–١٩٦٠)، وهو كاتب وجودي فرنسي. فمن بين الشخصيات التي يصادفها البطل أوديسيوس في تارتاروس — جزء من حادس (العالم السفلي) مخصص لأولئك الذين تطاولوا على الإله زيوس — كان سيسيفوس الذي عوقب أبديًّا برفع صخرة ضخمة إلى قمة هضبة شديدة الانحدار، لا لشيء سوى أن ترتد متدحرجة في كل مرة يوشك فيها على بلوغ القمة.

كانت أسطورة سيسيفوس جزءًا من الدين، شأنها شأن الأساطير التي حللها بولتمان ويوناس، بل ولا تزال جزءًا منه في رأي بولتمان. ويتعامل كامو مع الأسطورة، تمامًا مثل بولتمان ويوناس، كنص مستقل، مقطوع الصلة بأي دين راسخ ويُمارس. ومن منظور ثلاثتهم، تعد الأسطورة حكاية فلسفية؛ لأنهم يرونها «تعبيرًا» عن الفلسفة.